اختلاف البلاغيين واضطرابهم في تعريف البلاغة
ـ دراسة إبستمولوجية في المظاهر والأسباب ـ

Inability and confusion of rhetoritians in their definition of rhetoric
-An epistemological study of manifestations and causes-

الأستاذ بودفلة فتحي

قسم اللغة والحضارة العربية الإسلامية- كلية العلوم الإسلامية- جامعة الجزائر (1)

f.boudefla@univ-alger.dz

تاريخ الإيداع: 2020/10/10 تاريخ القبول: 2021/04/19 تاريخ النشر: 2021/09/15

- **ملخص:**

تهدف هذه المقالة إلى أمرين اثنين إثبات اضطراب وعجز البلاغيين عن تعريف البلاغة تعريفا يحقق التصوّر الصحيح لها ابتداء وتميّزها عن غيرها من علوم اللغة تبعا، ثم تحاول بعد ذلك البحث في الأسباب الإبستيمولوجية التي صعّبت هذه العملية، وعقّدتها.

ليصل الباحث من خلال الإجابة عن هذه الإشكالية ووحلّها إلى الوقوف على بعض خصائص البلاغة التي تميّزها عن باقي علوم اللغة العربية، وأوّلها دراستها للغة في جميع مستوياتها، واختصاصها بالدراسات اللغوية في مستواها العميق والدقيق...

الكلمات المفتاحية: تعريف البلاغة؛ مفهوم البلاغة؛ البلاغة ومستويات اللغة؛ البلاغة وعلوم اللغة.

Abstract:

The aim of this research is to explain two principale aspects. the first one is to show : The incapacity of some arabic language linguists to define clearly the meaning of rhetorics so that it might have a concret perception and be alinated from other language sciences. Moreover, It tries to look after the epistemological causes that makes this process very difficult or even a complex one.

The result of this research after dealing with The principale issue.

The reseacher will come to find out some characterictics of the rehtoric that distinguich it from other sciences in the arabic linguage, mainly the study of the language at all its levels and major characterictics.

key words: Definition of rhetoric; the concept of rhetoric; rhetoric and levels of language

مقدمة:

إنّ الوقوف على الحقائق العلمية سواء من خلال ضبط المصطلحات، أو جلاء المفاهيم وتميّزها، أو إحكام التعريفات وحسن صياغتها، من الأهمية بما كان في تصور هذه الحقائق العلمية أوّلا، وتمييزها عن غيرها ثانيا، وبالتالي الإصابة في إيقاع ما يلحقها من الملاحظات والأوصاف والأحكام عليها هي هي دون غيرها...

ولهذا كلِّه اهتم العلم قديما وحديثا، بمختلف شعبه وفنونه، وفي مختلف الحضارات والأمم، بتحديد وتصنيف الحقائق العلمية مصطلحاتٍ وتعريفاتٍ ومفاهيمَ...فوصل العلم بذلك كلّه إلى ما وصل إليه من الكثرة والتشعّب، ومن النماء والتطوّر، ومن التدقيق والتفصيل والتميّز....لكن هل هذا هو حال الحقائق العلمية كلّها ؟ طبعا لا، فبعضها استعصى على العلم ضبطها وتحديدها...

وسنحاول من خلال هذا المقال الوقوف على إحدى هذه الحقائق العلمية التي استعصى تعريفها، لنبحث في مظاهر هذا الاستعصاء وأسبابه، ونحاول تقديم الحلول والاقتراحات لتجاوز هذه العقبة المنهجية والعائق المعرفي....هذه الحقيقة التي نحاول دراستها، هي البلاغة، وليست البلاغة مسألة فرعية أو جزئية علمية، أو مسألة من أصول العلم، بل علما متكامل الأركان، وفنّا تعارف عليه الأوّلون والآخِرون، واشتغل به العرب والعجم على حدٍّ سواء، ويزعم أكثر من تحدث في قضية الإعجاز أنّه الوجه الأوّل والأهمّ لإعجاز القرآن الكريم... كما يزعم الناقدون للنصوص الأدبية أنّه أهمّ وأعظم ما يميّز هذه النصوص ويثبت الفضل والتقدم لبعضها على بعض، فكيف اضطربوا -حتى لا أقول - عجزوا عن تعريف علم كاملٍ، عظُم شأنه في عرفهم، وجلَّ قدره في حسّهم....؟ وما هي الأسباب الإبستيمولوجية وراء هذا الاضطراب والعجز ؟ وما هي الوسائل المنهجية والنظرية التي تمكننا من تجاوز هذه العقبة المعرفية ؟

وقد انتظم هذا المقال في مقدمة يعرض فيها إشكاليات البحث وأهدافه ومنهجه...، ومطلبين أوّلها لإثبات اضطراب وعجز البلاغيين في تعريف البلاغة، وثانيهما للبحث في أسباب هذا العجز، وخاتمة لعرض نتائج المقال وتوصياته.

المطلب الأوّل: مظاهر عجز واضطراب البلاغيين في تعريف البلاغة

لا يمكننا أن نناقش ونحلل إشكالية عجز البلاغيين عن تعريف البلاغة، والبحث في أسبابها، وتقديم نتائج ومقترحات منهجية وعمليه لتجاوزها، إلاّ إذا أثبتنا ابتداءً هذا العجز والإشكال، بما لا يبقي للقارئ والباحث مجالا للشكّ فيه، أو التردّد في إثباته؛ لهذا كان المطلب الأوّل في هذا المقال متعلقا بإثبات هذا العجز والاضطراب، من خلال نقل نصوص المختصين أوّلا، والنظر في تعريفاتهم ثانيا.

1. **التصريح بالعجز:**

المقصود بالتصريح في هذا العنصر أن أنقل نصوصا من شيوخ هذه الصناعة قديما وحديثا يقرون ويؤكّدون عجزهم عن تعريف البلاغة، ولعلّ أوّل نص أذكره هو لشيخ البلاغة ومهذّبها عبد القاهر الجرجاني (471هـ) حيث يقول في دلائل الإعجاز: "... ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى "الفصاحة"، و"البلاغة" و"البيان" و "البراعة"، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء..." إلى أن يقول: "....حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتحسر الظنون، وتسقط القوى، وتستوى الأقدام في العجز."[1] ويقول أيضا في الموضوع نفسه: "ولم يكن هذا الاشتباه وهذا الغلط إلا لأنه ليس في جملة الخفايا والمشكلات أغرب مذهبا في الغموض، ولا أعجب شأنا، من هذه التي نحن بصددها، ولا أكثر تفلتا من الفهم وانسلالا منها وإن الذي قاله العلماء والبلغاء في صفتها والإخبار عنها، رموز لا يفهمها إلا من هو في مثل حالهم من لطف الطبع، ومن هو مهيأ لفهم تلك الإشارات، حتى كأن تلك الطباع اللطيفة وتلك القرائح والأذهان، قد تواضعت فيما بينها على ما سبيله سبيل الترجمة يتواطأ عليها قوم فلا تعدوهم، ولا يعرفها من ليس منهم."[2]

كلام الشيخ عبد القاهر الجرجاني واضح جليّ، وهو بمثابة إقرار شيخ البلاغيين بهذا العجز سواء كان عجزا مطلقا، حيث بقيت تعريفاتهم غامضة ولم يؤدوا بها المطلوب؛ وهو تصوّر البلاغة وتمييزها... كما يفهم من النّص الأوّلِ، أو كان هذا العجز مقتصرا على من هو خارج

صناعتهم؛ والبلاغة حينها معلومة معروفة عند البلاغيين، ولكنهم عجزوا عن إيصال هذا المفهوم لغيرهم.... كما يفهم من النّص الثاني.

ومن أوضح ما قرأته عند بعض المتقدمين يصرّح فيه بهذا العجز قول ابن الأثير في الجامع الكبير: "اعلم أن هذا باب غامض، متعذر على الوالج، ومسلك وعر، مستصعب على الناهج. ولم يزل الناس من قديم الوقت، وهلم جراً، يتهافتون على الخوض فيه، والغوص عليه، وهم مع كثرة طلبهم لمعرفته، وتوفر حرصهم على الإحاطة به، لا يظفرون منه إلا كنغبة طائر أو قطرة من بحر زاخر. وقد قال بعض المصنفين من العلماء: (لم أزل منذ خدمت أهل العلم، انظر فيما قالوه في معنى الفصاحة والبلاغة، وأستكشف عن المعنى في ذلك، فلا أجد إلا كالرمز والاشارة، ولا أقف فيه على قول شاف، ولا كلام كاف. فلما رأيت الأمر كذلك، علمت إنه لا يكفي في معرفة هذا العلم العظيم، الذي كان به إعجاز القرآن الكريم، قول مهمل، ولا كلام مجمل. بل لا تتم معرفته حتى يفصل فيه القول، ويدل على الخصائص التي تأتي في تأليف الكلام، ويوضح إيضاحاً جلياً من غير مغادرة لشيء من ذلك، حتى تكون المعرفة بهذا العلم كمعرفة الصانع الحاذق، الذي يعلم كل هدبة منسوجة من الابريسم في الثوب الديباج، وكل حجر من الأحجار الداخلة في البناء، فإنك إذا نظرت إلى هذا العلم الشريف احتجت عند ذلك إلى طول مكث وتدبر، وكثرة تأمل وتفكر، والى همة تأبى أن تقنع إلا بأعلى المنازل، وأسمى المراتب. ومتى جشمت نفسك حول هذا المرام البعيد، وكلفتها صعود هذا المرمى النازح، فقد أممت أمراً عظيماً، وتعرضت لخطب جسيم) [انتهى الكلام الذي نقله] وفقنا الله وإياكم لمواقع الصواب."[3]

وتحت عنوان (في الفصاحة والبلاغة) في المثل السائر ذكر ابن الأثير الكلام نفسه، لكن بشيء من الاختصار.[4]

نقلت هذا الكلام كلّه على ما فيه من الطول؛ لأنّه صريح في إثبات عجز البلاغيين عن تعريف البلاغة أوّلا ، ثم لأنّه في نقله عن هذا المصنف[5] يشير إلى حقيقة هذا العجز وأصله وسببه ويحاول أن يرشد الباحث إلى كيفية التخلّص منه، فالنّص لا يثبت العجز فقط بل يدرسه ويحلّله ما يؤكّد أننّا أمام ظاهرة علمية مؤكّدة ومقررة ولسنا أمام مجرد طرح شخصيّ أو فرضية ذاتية...

ونختار من نصوص المعاصرين ما ذكره محمد أبو موسى حيث عنون لهذا المعنى بقوله (البيان عن البيان صعب) و(عجز البلاغة عن وصف نفسها) وممّا قاله يؤكّد هذا العجز ويبيّنه: "...وهناك ملاحظة، هي أنّ البيان وصف لنا ما وصف بكشف وحلاوة وجلاء، فلما

جاء يصف نفسه، غمضت عليه معانيه والتاث واستبهم، فكان كلام أهل البيان في شأن البيان خصوصا، كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء....."[6]

إثبات العجز عن تعريف البلاغة في هذا النّص واضح، بل أردفه الشيخ أبو موسى بوصف هؤلاء العاجزين عن التعريف، بالبلاغة والبيان وحسن الصياغة والكلام إذا أرادوا أن يعبروا عن مختلف مرغوبهم وكلّ مرادهم... ما أضفى على هذا العجز نوعا من التعجب والاستغراب، وأوقد في نفس الدارس المهتم حرقة البحث عن السبب وشعلة الكشف عن السرّ الكامن خلف هذا العجز.

2. تعريفات البلاغة من حيث شكلها وتعددها:

إنّ أوّل كتاب مصنف في البلاغة هو (البيان والتبيين) للجاحظ (255هـ) ويكاد يكون الكتاب كلّه محاولة للتعريف بالبلاغة سواء من جهة حدّها أو بيان أوصافها وتطبيقاتها؛ لكن المتأمل في الكتاب يجد حدّ البلاغة وتعريفها ضائعا في طياته، لأسباب كثيرة لعلّ من أبرزها موسوعية الجاحظ، وكون الموضوع جديدا مبتدعا، والتصنيف في أوّل نشأته... ولا يقل عن ذلك كلّه كون مفهوم البلاغة ذاته متشعب الأجزاء، ومتداخل الفروع والأركان، يصعب الإلمام به في صياغة لغوية ولو كان صاحبها الجاحظ نفسه.

ولأبي هلال العسكري (395هـ) في الصناعتين كلام طيب ومفيد يصف فيه كتاب الجاحظ وكونه أهم مصادر التعريف بعلم البلاغة ويصف في الوقت ذاته عيّه وعجزه عن تعريفها حيث يقول: " فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنّبل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنّفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب «البيان والتبيين» لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمرى كثير الفوائد، جمّ المنافع؛ لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبّه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة؛ وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة، إلا أنّ الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه، ومنتشرة فى أثنائه؛ فهى ضالّة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفّح الكثير"[7]

هذا أقدم كتاب في البلاغة ولا يختلف الأمر مع غيره من الكتب المعتمدة، فهذا ابن رشيق القيرواني (463هـ) يَضِيعُ قارِئُ كتابه العمدة في تتبع أكثر من أربعين تعريفا للبلاغة[8]. وستجد

المشكلة ذاتها عند من اختص في تتبع تعريفات الفنون والعلوم، فهذا الأبشيهي في المستطرف يعدد أكثر من اثني عشر تعريفا للبلاغة، ومثل ذلك في تعريفه للفصاحة[9]...

وقد اختلفت هذه التعريفات من حيث شكلها وصياغتها اللغوية اختلافا لا يكاد ينضبط، فبعضها طويل حتى تجاوز بها صاحبه الصفحتين والثلاث؛ فهو بذلك أقرب إلى التوصيف منه إلى التعريف[10]، وبعضها قصير حتى لا يكاد يتجاوز الكلمة الواحدة[11]، وبعضها انتهج أصحابها المنهج المنطقي في إقامة الحدود فنسبوها إلى جنس الكلام ثم حاولوا تمييزها بخواصها وما يعرض عليها[12]، وبعضهم انتهج المنهج الأصولي فلم يزد على اشتراط الجمع والمنع (العكس والطرد)،[13] وبعضهم انتهج المنهج اللغوي[14]...

3. تعريفات البلاغة من حيث الصياغة والمضمون:

ولو تتبعنا تعريفاتهم للبلاغة سنجدها من حيث مضمونها لا تكاد تجتمع على منهج واحد، فبعضهم عرّف البلاغة بالنظر إلى تأثيرها في المخاطَب،[15] وبعضهم إنّما نظر لملكات المتكلِّم، وبعضهم اهتم بالكلام، جماله، ونصاعة رسالته،[16] وبعضهم بالحال المحيط بالمقال، وآخرون اهتموا بالسياق....

ثمّ إنّ بعضهم عرّف البلاغة ببعض مباحثها ومسائلها سواء من حيث أهمّيتها كالإيجاز أو صعوبة إدراكها كالوصل والفصل....

ونجد الخلاف في تعريفات أخرى نتاج اختلاف المنطلق المعرفي واختلاف مشارب وموارد المعرِّفين، فانطلق بعضهم في تعريفاتهم من الدراسات النقدية، وبعضهم الآخر من قضية الإعجاز، وآخرون من الجدل وعلم الكلام ....[17]

4. انتقادات البلاغيين لتعريفات البلاغة:

الناظر في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (395هـ) يجده قد انتقد مجموعة من التعريفات، نذكر منها " إنَّ البلاغةَ إنما هى إنهاءُ المعنى" قال منتقدا ومعارضا: " فقد جعل الفصاحةَ، واللّكنةَ، والخطأَ، والصوابَ، والإغلاقَ، والإبانةَ سواءٌ،"[18] وفي قول العتّابى (220هـ) يعرِّف به البليغ : "كلُّ مَن أفهمَكَ حاجتَه فهو بليغٌ." تأوّله أبو هلال ثمّ قال: " ولو حملنا هذا الكلام على ظاهره للزم أن يكون الألكن بليغا؛ لأنه يفهمنا حاجته؛ بل ويلزم أن يكون كلّ الناس بلغاء حتى الأطفال، لأنّ كلّ أحد لا يعدم أن يدلّ على غرضه بعجمته أو لكنته أو إيمائه أو إشارته؛ بل لزم أن يكون

السّنّور بليغا؛ لأنّا نستدلّ بضغائه على كثير من إرادته. وهذا ظاهر الإحالة."[19] ثمّ عقد بعد ذلك فصلا كاملا لتتبع تعريفات البلاغة ونقدها وشرحها هو الفصل الثالث وهو القول في تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء في حدود البلاغة

ومثل ذلك صنع الخطيب القزويني (739هـ) فيما قدّمه وأثبته من تعريفات البلاغة وعلميها، البيان والمعاني[20]، ويحيى بن حمزة العلويّ (745هـ) في الطراز[21]، وبهاء الدين السُّبكي (773هـ) في عروس الأفراح[22] ...إلخ

فهؤلاء أعلام البلاغة توسعوا في انتقاد تعريفاتها، وبيان تهافتها، وذكر ما يرد عليها...

5. يُنسب للبلاغة ويُلحق بها ما ليس منها:

وأكثر من ألحق بالبلاغة ونَسَب إليها ما ليس منها المعاصرون، ودعاة تجديدها، فممّا قاله محمد عبد المطلب مشيرا إلى هذا المعنى: "...أساءوا إليها [أي البلاغة] مرتين: مرّة عندما أخذوها في عجلة من القراءة الأولى، ومرّة عندما أعادوا طرحها مُشَوَّهة عن وَعيْ أو بغير وعي."[23] فالخطأ قائم ابتداء بسبب عدم الفهم الصحيح لحقيقة البلاغة، والمفروض أنّ التجديد في التراث المعرفي أو نقده يبدأ بقتله فهما ودراسة وبحثا... وهذا لم يقع... ثمّ إنّ هؤلاء المجددين –زعما- عرضوا البلاغة التي يريدون تجديدها، أو تغييرها، أو إماتتها كما يرونها هم، أو كما يريدون أن يراها غيرهم، بلاغة التقليد والتقعيد، وبلاغة التقسيمات والمصطلحات اللامتناهية، والمفاهيم المعقّدة، والتعريفات الممنطقة... وهذا نقل ظالم ووصف جائر، لم يراع فيه أصحابه البلاغة في عصرها الذهبي عصر البحث عن العناصر الجمالية، وعصر النقد البناء الذي أرسى القواعد البلاغية .... وقد كان أمين الخولي أوّل المعاصرين الذين عرضوا البلاغة بمثل هذا العرض الذي أضر بها من حيث ركز على وصف مرحلة التقليد والجمود؛ فشرب تلامذته ومن تأثر به هذا الشعور وحسب البلاغة كلّها كما وصفها رحمه الله...[24]

وسأكتفي ها هنا بذكر نماذج من أحكام حادت عن الصواب بسبب أخطاء منهجية متعلقة بعدم إدراك حقيقة البلاغة ومفهومها الصحيح...

الأخطاء الناتجة عن عدم إدراك أصولها التي تستمدّ منها، ومنهجها الذي قامت عليه، ومن ذلك اعتبارها علما معياريا جامدا؛ فزعم بعض الحداثيين التخلي عن البلاغة لصالح علوم

أخرى أكثر مرونة وتطورا كالأسلوبية، أو النقد الأدبي مثلا... فهم يرون البلاغة علما معياريا بني في ظلّ فلسفة تغلِّب الثابت على المتغيّر، والقاعدة على الإبداع، والمثال على الحرية...[25]

الأخطاء الناتجة عن عدم إدراك حدود حقلها المعرفي الذي تنشط فيه ومجالات تطوّرها، ونتيجة ذلك يزعم بعض الحداثيين أنّ البلاغة إنما تدرس اللغة مجزّأة ولا تهتم بالوحدة الموضوعية للنّص الأدبي، ولا تقرأ النصوص إلاّ في مستواه الإفرادي والتركيبات الجملية ليس إلاّ...وقائل مثل هذا الكلام يجهل حقيقة كون البلاغة حقلها المعرفي يتسع للغة كلّها بجميع مستوياتها -كما سيأتي بيانه-.....

الأخطاء الناتجة عن عدم إدراك موضوعها ومادة دراستها، كمن يخلط بينها وبين معاني النحو[26]، أو كمن يزعم عقمها في البحث الصوتي أو الدلالي ونحو ذلك ممّا سيأتي رده وإبطاله....

المطلب الثاني: أسباب اضطراب وعجز البلاغيين عن تعريف البلاغة

لنتعرف الآن على ما نحسبه أسبابا كانت وراء اضطراب البلاغيين قديما وحديثا في تعريف البلاغة، وسنركز على الأسباب الإبستيملوجية المتعلقة بنظرة البلاغة للغة، ومنهجيتها في التعامل معها، وأصولها التي تستمدّ منها، وميادينها التي تعمل فيها...

1. **البلاغة تتعامل مع مختلف المستويات اللغوية**

ما من علم من علوم اللغة إلاّ ويتعامل مع جزئية خاصة منها، وفي مستوى محدّد من مستوياتها، فعلم المخارج لا يتناول من اللغة إلاّ مستواها الصوتي الفيزيولوجي، وعلم الصرف لا يدرس إلاّ مستواها الإفرادي البنيوي، وعلم النحو لا يتجاوز المستوى التركيبي، وهكذا يقال عن صفات الحروف والصوتيات ومتن اللغة والاشتقاق... وغيرها من العلوم اللغوية، جميعها إنّما تدرس جزئية منها وفي مستوى محدّد؛ وهذا الوصف لا ينطبق على علم البلاغة الذي يدرس اللغة في جميع مستوياتها؛ فهو يدرس المستوى الصوتي بكثير من مباحث البديع، كما يصنع مع السجع والجناس والتورية... ويدرس المستوى الإفرادي بعلم البيان حين يتناول نقل دلالة المفردات من معانيها المعجمية إلى معانٍ فرعية خاصة بالمجاز والاستعارة

والكناية والتشبيه[27]... وهو يدرس المستوى التركيبي بعلم المعاني حين يتناول الربط بين مختلف التراكيب، ودلالاتها، والتقديم والتأخير فيها [28]... ونحو ذلك.

وهذا التوسع في تناول اللغة، صعّب ضبط هذا العلم، وحدّه باعتبار تنوع عمله، وسعة ميدانه، فهذه السعة عقّدت تصوره. وباعتبار اختلافه عن مجموع علوم اللغة؛ تعقّد كذلك وصعُب تحديد أوجه تميّزه... وتصور الشيء وتمييزه عن الأشباه والنظائر هما المقصدان الرئيسيان من التعريف.

وإلى هذه العلة أشار يحيى بن حمزة العلويّ (745هـ) في الطراز حين عرّف علمي المعاني والبيان وأوضح اختلاف ماهيتهما ثمّ ذكر صعوبة تعريف البلاغة انطلاقا من صعوبة الجمع بين علمين مختلفين في حدٍّ واحدٍ حيث قال: "... إذا أردنا أن نجمعهما فى ماهيّة واحدة وفيه صعوبة لأنهما حقيقتان مختلفتان كما أسلفنا تقريره، فإذا كان الأمر فيهما كما قلناه الاختلاف فى الماهية فالأولى إفراد كلّ واحد منهما بماهية تخصّه كما أوضحناه من قبل؛ لأن الحقائق إذا كانت مختلفة فى ماهيّاتها فإنه يستحيل اندراجها تحت حدّ واحد وماهيّة واحدة؛ لأن فصل إحداهما مفقود فى الأخرى، فلأجل هذا تعذّر إدراجهما فى حدّ واحد"[29]

بل إنّ من أسباب عدم القدرة على تعريف البلاغة عند بعض المهتمين، واتهامها بما ليس فيها، عدم إدراك هذه السعة في موضوع البلاغة ومادتها التي تدرسها أصلاً، وما أكثر ما سمعنا من ينسب البلاغة للمستوى التركيبي دون غيره من المستويات اللغوية....

فأكثر البلاغيين –قديما وحديثا- يصنفون علوم البلاغة في المستوى التركيبي، فهذا الإمام الزركشي نموذجا... يتحدث عن مستويات التفسير اللغوي، وفكرة استنباط التفسير منها جميعا، فلما يذكر علوم البلاغة يصنفها جميعها في المستوى التركيبي، حيث يقول: "... وأما بحسب التركيب فهو من وجوه أربعة: الأول: باعتبار كيفية التراكيب بحسب الإعراب ومقابله من حيث إنها مؤدية أصل المعنى وهو ما دل عليه المركب بحسب الوضع وذلك متعلق بعلم النحو. الثاني: باعتبار كيفية التركيب من جهة إفادته معنى المعنى أعني لازم أصل المعنى الذي يختلف باختلاف مقتضى الحال في تراكيب البلغاء وهو الذي يتكلف بإبراز محاسنه علم المعاني. الثالث: باعتبار طرق تأدية المقصود بحسب وضوح الدلالة وحقائقها ومراتبها وباعتبار الحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والتشبيه وهو ما يتعلق بعلم البيان. والرابع: باعتبار الفصاحة اللفظية والمعنوية والاستحسان ومقابله وهو يتعلق بعلم البديع» [30].

فلم يلحظ رحمه الله تعلق علم البيان بالجانب الإفرادي؛ حيث يتم نقل المفردة اللغوية من دلالاتها الأصلية باعتبار الوضع، إلى دلالات فرعية يقتضيها الحال والسياق، كما أنه لم يلحظ الجانب الصوتي في علم البديع، وكيف أنه يدرس تناسق الأصوات وتناسبها وجماليات هذه العلاقات الصوتية... رغم وضوح هذه الحيثيات لمن تأمل حقّ التأمل ودرس هذه العلوم بموضوعية ومنهجية بعيدة عن الإملاءات المعرفية الضاغطة، والحدود العرفية الخانقة...

2. **البلاغة تتعامل مع اللغة في أعمق وأدقّ مستويتها موازنة بباقي علوم اللغة**

إنّ البلاغة على خلاف جميع علوم اللغة لا تتعامل مع مستويات اللغة كلّها فقط، بل تتعامل معها بمستويات أعمق وأدق، فعلم المخارج والصفات وعلم الصوتيات إنّما يتناولون الصوت العربي بالدراسة من جهة ظاهره، سواء فيزيولوجيا أو فيزيائيا أو مخبريا ليس إلاّ، لكن علم البديع إنما يدرس نغمه، وجماله، وتناسقه، وموسيقاه.... وعلم متن اللغة إنّما يدرس معنى المفردة الأصيل، المتواضع عليه أوّلا، بينما علم البيان يدرس دلالات هذه المفردة في مستويات أعمق، مستويات إبداعية ينقلها الشاعر والأديب من أصل وضعها إلى استعمالات أخرى بعيدة عن هذا الأصل المعجمي النمطي... وكذلك الأمر بالنسبة لعلم المعاني الذي لا يدرس التركيب في مستواه الأوّل مستواه السطحي كما يفعل علم النحو... بل يمعن النظر ويعمق البحث إلى ما يسميه البلاغيون بالمعاني الثواني ودلالات التركيب الفرعية والعميقة....[31]

وهذا التنوع من جهة، والدقة والعمق من جهة أخرى صعّب على المهتمين والمشتغلين بالدرس البلاغي تصوّر البلاغة على حقيقتها ابتداء، فضلا عن تعريفها... بضبط هذا التعدد في مجال دراستها وهذا العمق في تناول مواضيعها...

3. **البلاغة تجمع بين الفن والعلم**

البلاغة في جميع مباحثها تهتم بالجمال وضبط الكلام، والجمال ذوق وإمتاع، وضبط الكلام علم وإقناع.... فمن رماها بالمعيارية أنكر علميتها، بإنكاره جانب ضبط الكلام والتقعيد والتقنين له. ومن رماها بعدم الانضباط وتمططها وانفلاتها، فقد أنكر فيها هذا الجانب الذوقي الجمالي، الذي لا يمكن التقعيد له تقعيدا لا انفلات فيه، وتقنينا لا حرية فيه، ولا فسحة، ولا انسياب....

ولا يقف الأمر عند استحالة التقنين للجمال فقط، بل تعريفه أيضا بعيد المنال؛ فالجمال لا يمكن حدّه وضبطه؛ لأنّه وصف مطاط متفلِّت عن التعبير والألفاظ، مستعصٍ عن التقعيد والإلمام ....

وفي مقابل ذلك فإنّ التقعيد الذي عرفته البلاغة والمعيارية التي نقلتها من مجرد فنّ القول، إلى علم مستقل متكامل الأركان، إنّما يصف شيئا من حسن الكلام لا كلّه، وهو تصوير ما استشفوه، وضبط ما اكتشفوه، وما خفي من الكلام المعجز لا يحيط به إلاّ صاحبه الذي تكلّم به من فوق سبع سماوات... وما يدّخره الزمان من كلام الفصحاء والبلغاء قد نجد فيه ما يبهر ويسحر وما يضاف إلى هذا التقنين أو يعدّله...فيبقى تعريف البلاغة وحدّها من جهة التقنين للكلام مفتوحا للإضافة والتعديل أبدا ما بقي الكلام متّصلا والإبداع عند الإنسان متواصلا...

والنتيجة أنّ البلاغة سواء انطلقنا من جانبها الفني الجمالي، أو جانبها العلمي التقنيني، لا يمكن ضبطها، ذاك بسبب انسيابية جانبها الجمالي، والتقنينات المستنبطة من إبداعات الكلام اللامتناهية...

4. البلاغة تستمد مباحثها ومسائلها من حقول معرفية متعددة ومتنوعة

كثير ممّن عمد إلى تعريف البلاغة والبحث في حقيقتها، نظر إلى شيءٍ من مواردها وأصولها وحسِبها تستمدُّ منه –وحده- مادتها وقوانينها، فانطلق بعضهم من النقد الأدبي ورأى أنّ البلاغة ما هي إلاّ بنك معلومات تجمعت بفعل الدراسات النقدية في الأدب العربي[32]، بينما انطلق آخرون من قضية الإعجاز ورأوا أنّ البلاغة بحث في دلائل الإعجاز وأوجهه اللغوية ليس إلاّ[33]، وانطلق آخرون من ظاهرة الجدل الكلامية والمناظرات المذهبية والمواعظ الخَطابية،[34] ورأوا أنّ البلاغة ليست سوى وسائل للإقناع – ولو بغير حقٍّ- وضوابط للجدل والحجاج - بقصد لجم الخصم وإسكاته- وقوانين لاستمالة العامة بالترغيب حينا وبالترهيب حينا آخر...

وبناء على ذلك تصوّر كلّ واحد البلاغة وعرّفها من منطلقه الخاص، ومن مورده ومصدره الذي تناول البلاغة فيه وتعلّمها منه، دون النظر إلى باقي مواردها ومشاربها ومصادرها... فحقيقة البلاغة كلّ ذلك وأكثر... وعلى من أراد أن يتصورها على حقيقتها أن ينظر إليها من جميع زواياها التي انطلقت منها وتطوّرت في رحابها....

5. اختلاف مجالات عمل البلاغة

ثم إنّ هذا الاختلاف في موارد البلاغة ومصادرها، قد أدّى بالضرورة إلى اختلاف الحقول المعرفية المشاركة فيها من حيث التعريف بها والتقنين لها، ومن حيث عملها والعمل بها، فعلم النقد قائم على البلاغة وهو يحتاج منها قوانينها وموازينها، وعلم التفسير بعضه قائم على البلاغة –أيضا- من حيث حاجته إلى الكشف عن دلائل التركيب القرآني وإعجازه وأسرار بيانه، وعلم الجدل والكلام يحتاج منها إلى وسائل الحجاج والإقناع اللغوية... وهكذا يقال في مختلف الحقول المعرفية التي تتعامل مع البلاغة، وتعملُ فيها البلاغة...

وتعريف البلاغة يحتاج إلى الإشارة – ولا بدّ- إلى تحديد حقل معرفتها ومجال تخصصها؛ وهذا التنوع والتوسع في ميدان عملّها يصعّب من حدّها وضبط تعريفها.

6. البلاغة في تطور مستمر

أشرنا مند قليل إلى هذه الحقيقة، وهي في غاية التقرير، ولا يمكن أن ينكرها أحد ممّن خابر هذا العلم ووقف على تاريخه، فالبلاغة على خلاف أكثر علوم اللغة إن لم أقل كلّها -التراثية على الأقلّ- التي تعتمدُ ما تواضع عليه العرب الأوائل وما نزل به الكلام المعجز... لا تَعْدِل عنه ولا تحتج بما عداه...لكن البلاغة على خلافها لا تزال تحتج بالكلام البليغ كلّه، قديمه وحديثه، بل عربيّه وأعجميه... تستنبط منه قواعد الإمتاع والحسن، وتستكشف فيه مواطن الجمال والفنّ... يقول عبد الملك بومنجل في تأصيل البلاغة: "وإنّ هذا العلم لم يغلق بعدُ بل بإمكان النقاد في كل عصر أن يضيفوا إليه زبدة ما استنبطوه من أحكام صحيحة أو هي موضع إجماع أو قبول على أقلّ تقدير."[35]

وانطلاقا من هذا التطور الدائم والمستمرّ، صعُب تعريف البلاغة، فالتعريف إنّما يتأتى فيما كان ثابتا، محدّدَ المجال ومعروف الحقل...أمّا المتغيّر المتطوّر؛ فلا يمكننا ضبط صورته حتى نعرّفه....ولا يمكننا ضبط قواعده حتّى نحُدّه.

وكخلاصة لهذا المطلب، يمكنا أن نجمع أسباب فشل البلاغيين في تعريف البلاغة في عامل واحد هو العجز عن تصوّر مفهومها تصورا شاملا وصحيحا؛ لأنّ التعريف فرع عن التصوّر، فلا يمكننا أن نصل لتعريف صحيح وموحّد إذا كان المفهوم غير محدّد... ولو تأملنا في كثير من الكتابات القديمة والحديثة سنجد أنّ تصوّر البلاغة لم يكن دائما تصورا صحيحا، فضلا عن أن يكون موَحّدا... فقد نسبها أكثر من عرّفها إلى دراسة التركيب، وجعلها بعضهم فرعا عن علم النحوّ، وحصرها آخرون

في جانبها الفني الجمالي، وآخرون نفوا عنها وجه التطوّر فحصروها فيما ذكروه من القواعد وعدّدوه من الضوابط ومن عدل عنها عدل عن البلاغة والفصاحة وعُدّ كلامُه لحنا وعيّاً...إلخ

فهؤلاء جميعهم... وغيرهم... إنّما فشلوا في تعريف البلاغة، كلّ البلاغة؛ بسبب حصر تعريفاتهم على أهمّ ما فيها، وقصرها على بعض أجزائها، وتعميم شيئا من منهجها على كلّ مسائلها ونحو ذلك....

الخاتمة

من أهمّ نتائج هذا المقال إثباتُ عجز البلاغيين في تعريف البلاغة؛ انطلاقا من إيراد بعض نصوصهم المصرّحة بذلك، أو من خلال النظر في تعريفاتهم سواء من جهة تعددها الذي لا ينضبط، أو بنائها اللفظي المتناقض، أو مضمونها المعرفي المتعارض.

ثم ردُّ هذا العجز لعدم تصوّر البلاغة على حقيقتها؛ سواء بسبب النظر إليها من زوايا معرفية ضيقة، أو تقزيم مجالات عملها، أو تغليب بعض خصائصها المنهجية وميزاتها المعرفية على بعض...

ويقترح البحث للوصول إلى تصوّر البلاغة على حقيقتها، والتمكّنِ من تمييزها: تجاوزَ تعريفها، والاشتغالَ بتحديد مفهومِها؛ خاصة وأنّ الحقائق المعرفية إنّما تدرك حقَّ الإدراك بمفاهيمها أكثر من مصطلحاتها وتعريفاتها؛ فالمصطلح ما وُضِع إلاّ لإثارة المفهوم المُتَصور في الذهن، والتعريف ما هو إلاّ محاولة ربط بين المصطلح والمفهوم؛ فالمفهوم هو الأصل، وهو الأساس الذي منه تستنبط المصطلحات والتعريفات، وهو –بالتالي- الأصل الذي به تفهم وتُدرك الحقائق....

بناء على ذلك يمكننا تقديم جملة من المعالم المنهجية، والحقائق المعرفية، التي تمثل أركان مفهوم البلاغة، والتي لا يمكننا تصورها تصورا صحيحا إلاّ باعتمادها وملاحظتها:

1. البلاغة العربية تدرس اللغة في جميع مستوياتها، الصوتية، الإفرادية، التركيبية، الدلالية.

2. البلاغة تدرس اللغة في جميع مستوياتها بشكل أدقّ وأعمق من غيرها من الفنون الكلامية والعلوم اللغوية.
3. البلاغة تجمع بين البحث في جودة صياغة الكلام وجمال عرضه.
4. البلاغة فن قائم على كثير من الذوق والذاتية ويعطي الدارِس مجالات واسعة من حرية التقييم والتحليل.
5. البلاغة علم قائم على الضبط والموضوعية، يلزِم الدارس بقوانين منهجية، وقواعد لغوية، لا يصح نسبة الكلام للحسن والجودة إلاّ بها...
6. البلاغة في تطوّر مستمر، لا يتوقف ما دام الإنسان العربيّ يتفنّن في الكلام ويبدع فيه، وما دام العالم اللغوي يكتشف جماليات جديدة، وضوابط مفيدة...
7. موارد البلاغة التي نشأت فيها متنوعة ، ومجالات عملها التي تُبدع فيها متعددة، لكن حقيقتها واحدة، هي الحقيقة التي تجمع بين شتات مواردها، والإبداع نفسه الذي يتجلى في مختلف ميادين عملِها.

بمجموع هذه المعالم نستطيع أن نتصوّر البلاغة على حقيقتها، ونميّزها عن غيرها من علوم اللغة... وعلى من أراد أن يتعرف عليها أن يلتزم بها، أو يصوغ تعريفا يجمعها...

- قائمة المصادر والمراجع

1. أحمد سعد محمد، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، مكتبة الآداب القاهرة (د ت). وأصل الكتاب رسالة دكتوراه تخصص البلاغة والنقد الأدبي نوقشت بكلية البنات بجامعة عين شمس سنة 1418هـ 1997م نالها صاحبها بمرتبة الشرف الأولى.
2. أحمد بن علي بن عبد الكافي أبو حامد بهاءُ الدين السبكي (773 هـ)،عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1423 هـ - 2003 م.
3. الحسن بن رشيق أبو على القيرواني الأزدي (463 هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة 1401 هـ - 1981 م.
4. الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران أبو هلال العسكري (نحو 395هـ)، الصناعتين،. تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية بيروت 1419 هـ

5. الرّماني (384هـ)، والخطّابي (388هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (471هـ) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ضمن سلسلة في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام دار المعارف مصر الطبعة الثالثة (د ت).
6. عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، أبو بكر الجرجاني (471هـ)، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة (د ت)
7. عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد أبو بكر الجرجاني(471هـ)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، المؤلف: تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر. مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة الطبعة الثالثة 1413هـ - 1992م.
8. عبد الملك بومنجل، تأصيل البلاغة بحوث نظرية وتطبيقية في أصول البلاغة العربية، منشورات مخبر المثاقفة العربية في الأدب ونقده، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2.
9. محمد بن أحمد بن منصور شهابُ الدين الأبشيهي أبو الفتح (852هـ)، المستطرف في كل فن مستطرف، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى 1419 هـ
10. محمد أحمد عبد العزيز الجمل، الوجوه البلاغية في توجيه القراءات القرآنية المتواترة، رسالة دكتوراه تخصص التفسير وعلوم القرآن جامعة اليرموك الأردن، بإشراف فضل حسن عباس، مناقشة محمد أبو موسى، عبد الباسط إبراهيم بلبول، سمير شريف استيتيه، أحمد خاد يوسف شكري. قدمت بتاريخ 7 محرم 1426هـ 16 فبراير 2005م.
11. محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الهمذاني بهاءُ الدين (1031هـ)، الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1418هـ -1998م.
12. محمد بن عبد الرحمن بن عمر أبو المعالي جلال الدين القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق (739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت الطبعة الثالثة، (د ت).
13. محمد بن عبد الله بن بهادر أبو عبد الله بدر الدين الزركشي (794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي وشركائه، القاهرة الطبة الأولى: 1376 هـ - 1957 م.
14. محمد بن عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر الطبعة الثانية 2007م.

15. محمد محمد أبو موسى، خصائص التركيب –دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني-، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الرابعة 1316هـ 1996م.
16. نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري أبو الفتح ضياء الدين المعروف بابن الأثير الكاتب (637هـ)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي 1375هـ.
17. نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري أبو الفتح ضياءُ الدين المعروف بابن الأثير الكاتب (637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1420 هـ
18. يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللَّه (745هـ)، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة الأولى 1423 هـ

الهوامش:

1 دلائل الإعجاز ص34-35
2 دلائل الإعجاز ص250
3 الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ص: 76-77
4 المثل السائر 80/1
5 هذا المصنف لا يستبعد أن يكون عبد القاهر الجرجاني، فكلامه هذا يكاد يكون متطابقا مع النص الذي ورد عنه في دلائل الإعجاز [ص 34-35] والخلاف الموجود في لفظه قد يكون بسبب نقل ابن الأثير لهذا الكلام من حفظه وضبطه، أو لعلّه تصرف في لفظه ونقله بمعناه....والله أعلم.
6 مدخل إلى كتابي عبد القاهر، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة القاهرة ص36-37. (د ت) وانظر: الوجوه البلاغية في القراءات القرآنية المتواترة ص99
7 الصناعتين ص4-5
8 العمدة 241/1...250.
9 المستطرف في كل فن مستطرف ص50 وما بعدها
10 ينظر مثلا تقنين بشر بن المعتمر للبلاغة في البيان والتبيين 128/1
11 كتعريف البلاغة بالإيجاز، انظر البيان والتبيين 17/1-98
12 ينظر الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني 17/1 وما بعدها.
13 ينظر الإيضاح في علوم البلاغة 49/1.

[14] ينظر البيان والتبيين للجاحظ فهو خير مثال لملاحظة التعريفات التي انتهجت النهج اللغوي في تعريف البلاغة....

[15] الصناعتين ص10-12

[16] تأصيل البلاغة، أ.د. عبد الملك بومنجل. ص10

[17] ينظر الطراز وكيف اختلفت تعريفاته للبلاغة باختلاف منطلقات التعريف فهي كلامية جدلية منطقية في التعريف الأوّل، لغوية نقدية في التعريف الثاني، إعجازية في التعريف الثالث !/11.

[18] الصناعتين ص10

[19] الصناعتين 12

[20] الإيضاح 17/1...54...

[21] الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 11/1 وما بعدها.

[22] عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أحمد بن علي بهاء الدين السبكي (773هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية بيروت الطبعة الأولى 1423هـ 2003م. 1/ 54....وما بعدها.

[23] البلاغة العربية قراءة أخرى ص2

[24] ينظر خصائص التركيب ص41

[25] ينظر: تأصيل البلاغة، بحوث نظرية وتطبيقية في أصول البلاغة العربية، أ.د. عبد الملك بومنجل. منشورات مخبر المثاقفة العربية في الأدب ونقده، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2. ص9

[26] ينظر على سبيل المثال: تزجيه ظاهرة الالتفات في كتاب: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ص333 وما بعدها ستجد أكثرها توجيهات نحوية متعلقة بمعاني النحو أي ما سماه البلاغيون قديما بالمعاني الأوائل وهي الدلالات الأصلية للتركيب والوظائف النحوية.... التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، أحمد سعد محمد. مكتبة الآداب القاهرة (د ت). وأصل الكتاب رسالة دكتوراه تخصص البلاغة والنقد الأدبي نوقشت بكلية البنات بجامعة عين شمس سنة 1418هـ 1997م نالها صاحبها بمرتبة الشرف الأولى.

[27] ينظر: دلائل الإعجاز ص429-430.

[28] ينظر: دلائل الإعجاز ص 452...

[29] الطراز 10/1

[30] البرهان في علوم القرآن، 2 / 174.

[31] أشار إلى هذا لملمح المنهجي يحيى بن حمزة المؤيد بالله الطالبي (745هـ) في الطراز 13/1-14.

[32] تأصيل البلاغة، بحوث نظرية وتطبيقية في أصول البلاغة العربية، أ.د. عبد الملك بومنجل. منشورات مخبر المثاقفة العربية في الأدب ونقده، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2. ص9.

[33] ينظر ثلاث رسائل في الإعجاز ص7

[34] وأفضل من يمثّل هذا الاتجاه الجاحظ (255هـ) في البيان والتبيين.

[35] عبد الملك بومنجل، تأصيل البلاغة ص18